


المنظومة
ALMANDUMAH

الأدب السوسي بين الأنواع الصغرى والآداب الكبرى

سعيد علوش

كلية الآداب والعلوم الانسانية
الـــربـــاط

تأتي أهمية البحث في الأدب السوسي، من توجهه أساسا إلى القيمة التعريفية البارزة، التي تستهدف المساهمة في تدوينه والتاريخ له وتعريبه وتيسير دراسته.

ويبدو مع ذلك أن هذا الأدب يتجنب الخوض في المشكلات النظرية والمنهجية الهامة ـــ مع الاستثناءات بالطبع ـــ وهي مشكلات تقتضي تناولا جديا للأدب الشفوي عامة، والأدب المكتوب على وجه الخصوص. ونلاحظ أن هاجس الجمع والتوثيق. يكاد يهيمن على جل الأبحاث والأعمال، وتظهر الطريقة المفضلة، هي تلك الطريقة التقليدية، السهلة والاقتصادية : وهي تتوخى الترجمة للأدب والأديب، ثم التعريف والشرح، لتنتهي بالتعليق الانطباعي.

من هنا، يكاد لايحدد الباحثون، بما يكفي من الوضوح والتفصيل الاطار النظري، الذي يستمدون منه أدوات تحليلهم ومناهجهم، إذ لابد من بسط الإطار النظري ومناقشته ـــ عند الضرورة ـــ وكذا تبيان أسباب ملاءمته لمعالجة الظواهر، قيد الدرس.

وهكذا، فلا يمكن لأي تساهل في هذا التحديد الا أن يؤثر سلبيا على العملية الوصفية والتعريفية، التي يعتقد في «موضوعيتها وبراءتها» من كل «التزام» نظري.

لقد تطاول تجاهل النخب الثقافية، على مشروعية «مرحلة التعريف» بإنتاج أدبي خصب وعريق، إذ يسري هذا التطاول على شعب الدراسات الأدبية الجامعية، والشؤون الثقافية، والنقد الصحفي... من ثم، لابد من التذكير بأن جل الدراسات

الوصفية والتعريفية، التي تناولت الأدب السوسي المغربي، منذ النصف الثاني من القرن 19، وجلها من تأليف باحثين أجانب تطغى عليها مواقف ملتبسة، تهتم بالأدب الأمازيغي عامة، كوثيقة سوسيولوجية أو إثنوغرافية تخدم الأغراض الآنية، لا أقل ولا أكثر.

لذلك لابد من التساؤل : إلى أي مدى يمكن الاطمئنان لقراءات لاتولي الأهمية اللازمة لمستجدات الدرس الأدبي المعاصر في تناول الأدب السوسي ـــ الشفوي والمكتوب ـــ بخصوصياته المعقدة والهامة : أي شروط الانتاج والتلقي والنقل والانتقال إلى الكتابة، والارتباط أو الانفصال ب/ وعن الموسيقى والرقص، وباقي وسائل التعبير المرئية والمسموعة، وينسحب هذا الوضع على مكونات الأدب الشعبي الأخرى، كالزجل والملحون.

ونعتقد إن إطارا نظريا، يجيب عن هذه الاشكالات، ويمكن من اختبار وإغناء النظريات والافتراضات الشاعرية، التي تحاول مقاربة ظاهرة الأدب السوسي بأدوات جديدة، ويوفر الأدب الأمازيغي عامة، مادة خصبة، لم تستنفد بعذ، كل طاقاتها وإمكاناتها الأدبية، المستعصية على المناهج التقليدية الوصفية.

ويثير، من هنا، الجانب التيمي في البحث، مشكلات منهجية ونظرية لاتقل أهمية، عن باقي القضايا في الأدب السوسي خاصة، والأمازيغي عامة لا لأن الباحثين يفصلون فصلا تعسفيا بين عالم المضامين والتيمات، وعالم الصور والأخيلة والرموز، على مستوى التعبير الفني، بل أيضا، لأنهم يقدمون تركيبا شموليا «مغلقا» حول تصورات وعوالم الأدب السوسي.

تقودنا القراءة في الأدب السوسي من خلال هذه الطروحات إلى التشديد على عديد من الثنائيات التي تفرض نفسها كالتالي :

1 ـــ **الثنائية الأولى** : وتظهر من خلال اهتمامات :

أ ـــ التاريخ الأدبي من جهة

ب ـــ الخوض في الأنواع الصغرى والكبرى من جهة ثانية

2 ـــ **الثنائية الثانية** : وهي تتوزع بين البحث عن هوية الأدب السوسي، ووسيلة كتابته العربية أو الأجنبية، أي : من خلال الانتقال من الشفوية إلى الكتابية، أو التواصل بين تقاليد إقليمية وأخرى وطنية ودولية، وبعبارة أخرى : الاختيار بين الاندماج والخصوصية.

3 ـــ **الثنائية الثالثة** : وينبني على الثنائية السابقة ثنائية :

أ ـــ الأخذ بالحداثة والإلمام باللحظة.

ب ـــ أو الحفاظ على التراث وإحيائه.

4 ـــ **الثنائية الرابعة** : وتخص اختبارات وسائل التعبير، التي تندرج في قنوات :

أ ـــ الوسائل السمعية البصرية والتعبيرية الجسدية من أغاني شعبية و / أو فولكلورية ومهرجانات مسرحية وتظاهرات ثقافية.

ب ـــ الوسائل المكتوبة والمقروءة، من مطبوعات ومجلات ودراسات ورسائل جامعية... إلخ.

ونلاحظ في النهاية بأن هذه الثنائيات، قد لاتخص الأدب السوسي، وقد تتعداه إلى الأدب الأمازيغي، أو إلى أي أدب آخر إلا أن الخصوصية الوحيدة، هي تلك التي ترتبط ببنية هذا الأدب وطبيعته، خلال قرون من تواجده.

ومع هذا فهذه المجموعة من الثنائيات تسمح مؤقتا بطرح إشكالية هذا الأدب الموزع بين ظروف كتابية محدودة التداول، وظروف كاتبية ـــ عربية وأجنبية ـــ تمنحه العديد من آفاق التداول.

كما أن وجود أدباء سوسيين يكتبون بالعربية أو بالفرنسية، يقلب كل أطروحات الأدب السوسي، الذي يبحث عن الوطنية والعالمية، ضمن الآداب الكبرى، وللأسف فإننا لاتناقش هنا الحدود الحاضرة والمسكوت عنها كاملة بل نقتصر على إثارة علامات استفهام بأكثر ما نستهدف إيجاد حلول لقضايا مباشرة ومادية، فالأدب السوسي من هنا، يتطلب البحث في أدبيته ومقدارته الأدبية، بأكثر من تغليب عرقيته على أدبيته، فاما أننا أمام أدب كامل أو لا أدب، وأما أن نتعامل معه كأدب من الدرجة الثانية أو الثالثة، فهذه قضية متروكة للراغبين في خوضها.

ومن هذا المنظور، نقتصر على معالجة الثنائية الأولى ـــ على أن نتعرض لباقي الثنائيات، في فرصة أخرى ـــ دون غيرها.

الثنائية الأولى : وتظهر من خلال حركة تاريخ، وتحاول أن تبحث عن أصول هذا الأدب، وهي حركة قد تظهر معزولة لأول وهلة، ولكنها حركة تمتد من شمال المغرب إلى جنوبه، إذ نكاد نجد أن بداية تاريخ الأدب المغربي، هي في الأصل

تاريخ لأدب الأقاليم المغربية : من هنا، نجد هذه الحركة من الشمال نحو الجنوب كالتالي :

1 ــ عبد الله كنون ومحمد سكيرج بطنجة.

2 ــ محمد داوود بتطوان.

3 ــ محمد بن جعفر بفاس.

4 ــ عبد الرحمان بن زيدان بمكناس.

5 ــ محمد بن علي دنية، وبوجندار، ومحمد بن علي السلوي، بالرباط وسلا.

6ــ الصبيحي السلاوي بقبيلة (عبدة).

7 ــ الكانوني بآسفي.

8 ــ عمر بن المدني الكلاوي، ومولاي علي الدمناتي، بدمنات.

9 ــ الحبيب الدرعي بدرعة.

10 ــ أحمد الزياني بزيان.

11 ــ سيدي العباس بمراكش.

12 ــ محمد المراكشي والركراكي الرباطي، بالصويرة.

13 ــ والمختار السوسي بسوس.

وقبل التوقف عند هذا الأخير، لابد من الإشارة إلى فقرة لمحمد داوود، كتبت سنة 1933. وهي عبارة عن دعوة لتاريخ الأدب المغربي، ويظهر أنها لم تكن مجهولة عند المختار السوسي.

يقول محمد داوود :

«كل أديب مغربي يشعر بالحاجة الماسة إلى تاريخ دقيق لأدبنا القومي، يسجل فيه إنتاجنا الأدبي ونبوغ رجاله، ومامر على الأدب من أطوار، وبعبارة مختصرة :نحن نريد أن نعرف ماهية الرسالة الأدبية، التي أديناها، وكيف أديت هذه الرسالة، وغير لائق بنا أن نبتدىء بهذه النهضة الحادة المسترسلة من غير أن نلتفت إلى رسم حركات تاريخنا الأدبي، وفيه نفسيتنا القومية، ووجودنا الفني، الذي خلف الآباء للابناء متعة ولذة.

فبماذا شعر قومنا ؟ وكيف شعروا ؟ وما هو تأثير شعورهم في أنفسهم وفي غيرهم ؟ وتأثير شعور غيرهم فيهم ؟ ومن هم قادة هذا الشعور ؟

هذه أسئلة نريد أن يجيب عليها تاريخ ممتع، ولعلنا سنجد هذه المتعة في تاريخ الأدب المغربي.... (مجلة السلام ج 1، س 1، 1933).

وليس هذا الاحساس معزولا، بل يكاد يكون رد فعل، تكون لدى الأدباء المغاربة، بتعدد مشاربهم وانتماءاتهم الاقليمية، لأن الجيل الوطني الأول كان جيلا توحده الحوافز الوطنية والسلفية، فالمصدر الثقافي يكاد يكون واحدا كما أن الهدف النهضوي كان واحدا.

أ) **التاريخ للأدب السوسي** يتخد التاريخ للأدب السوسي، طابع التساؤل عن الهوية الثقافية والدينية، من جهة، وطابع مواجهة أدب البادية للمدينة وأدب الإقليم للوطن ككل.

ويظهر أن الأب الروحي لهذه الحركة التاريخية في سوس هو م.م السوسي الذي أصبح اسمه مصدرا أساسيا، لكل مقاربة لهذا الأدب.

فالمعسول بأجزائه العشرين، أهم موسوعة تاريخية لهذا الأدب، لهذا فقد ركزنا على جوانبه التنظيرية والمنهجية، حتى وان جمع المادة هو ما يواجه القارىء العادي لأول وهلة، ويفزع المتخصصين من القراء المتميزين.

إن أول ما يتطرق إليه م.م. السوسي، هو طرح العلاقة بين الآداب الكبرى ــ بالمدن ــ والآداب الصغرى ــ بالبوادي ــ مشددا على شبه ــ عقدة الدونية :

«.. ان كتاب (الغ) المتواضع، الذي لا يغترف إلاَّ مِنْ وشل، وليس موضوعه الابادية قاحلة، وأدباء بدويين وأخبارا شخصية إقليمية، ليستحي أن يقف إزاء هذه المؤلفات العظمى، استحياء قزم، وقف إزاء عماليق من أبناء بني عبد المدان، ولكنه حين أفاد عن تلك الجهة مالا يفيده غيره، فبحسبه ذلك قيمة بين إخوانه من هذه المؤلفات... (المعسول ج 1 ص 25).

كيف، يمكن ــ (المعسول) ــ من هذا المنظور ــ أن يكون معسولا، وهو أدنى من الآداب الموازية والمقاربة له ؟ فهو معسول بالنسبة لمن إذن ؟ هل هو معسول الجنوب وحده ؟ وفي هذه الحالة سيكون مجرد أدب من الدرجة الثانية أو الثالثة.

وإذا كان معسولا بالنسبة لسوس، وللأدب العربي معا، فهذا يقتضي ابعاد الدونية، التي يحاول م.م. السوسي، إلصاقها به، أو الاعتذار له بها.

أم إن القضية لاتكمن لا في هذا ولا في ذاك، بل في إيجاد وسيلة تعبير ملائمة لتقديم ما كان مجرد كلام (على أفواه الرجال). بتعبير م.م السوسي، وإيجاد مكان له على السنة الاحياء، لأن المؤرخ الأدبي هو الذي يتقدم الأديب في هذه العملية، مادامت محاربة النسيان، هي التي تعمل على إعادة توزيع الفضاء الأدبي السوسي،، عند المؤرخ.

«كنت مرة زرت الزاوية الدلائية، من آيت إسحاق، في سفح الأطلس الكبير، فصرت أبحث هل أجد هناك أثراً من آثار أولئك العلماء، الأدباء العظام. فلم أقع على أي أثر (...) فإذ ذاك عرفت أن الخلود لامثال هؤلاء لايكون إلا بالتسجيل بالاقلام، فاختمرت هذه الفكرة في نفسي، من ناحية سوس، الذي أعرف فيها من أمثال الزاوية الدلائية عشرات فعشرات...«(المعسول ج 1 ص : (د).

فالدافع الأساسي، الكامن وراء عسل المعسول، هو المقابلة بين زاويتين : الدلائية والناصرية، على اعتبار أن الثانية هي التي كانت تسيطر على سوس، كما أن غياب آثار الأولى، هو الحافز على تدوين آثار الثانية، والتعرف على الأولى، يستخلص منه التعريف بالثانية، مادام الانتماء إلى هذه الأخيرة، يصبح حافزا للتاريخ لها، اعتبارا بما للزاوية الدلائية.

كما تدخلت عوامل عائلية وبنيات قرابة، تجعل من عسل المعسول عسلا محليا :

«فقال لي الأخ — وقد رآني مكبا على تسجيل كل ما أسمعه مما جمع في كتاب (من أفواه الرجال) ولا أنظم ما أسوقه فيه، ولا أختار، ماذا تصنع الآن ؟ فإن كنت لابد كاتبا، فهيء لنا كتابا عن (الغ)، وعن كل من مر فيها من العلماء والأدباء والحوادث، ليكون لنا ككتاب آل زاوية تيمكيدشت، الذي ألفه العربي المشرفي الفاسي، فكانت هذه الكلمة من الأخ، هي البذرة الأولى من هذا الكتاب، ثم نظمته تنظيما يكاد يستوفي كل أعمال زوايا سوس ومدارسها (....) وقد رتبت الكتاب على خمسة أقسام. (المعسول ج 1 ص (هـ)).

1 — يفهم من هذا : 1 — وجود مادة جاهزة (من أفواه الرجال)، ولا تتطلب غير تصنيفها.

2 ــ إقتفاء تجربة تاريخ ــ أدبية سابقة : للعربي المشرفي الفاسي.

3 ــ المراهنة على مركزية نشاط الغ الثقافي والأدبي.

من ثم، كان الهم الأساسي لمؤرخ الأدب السوسي هو العمل على تحدي المؤرخ والأديب إذ نجد بالمعسول الجغرافي والاثنولوجي والفقيه والعالم والأنتروبولوجي، المتنقل ميدانيا من منطقة إلى أخرى متوسلا في عمله باعتماد نوعين أدبيين، هما : الرحلة والترسل فلا غرابة أن يعترف م.م. السوسي بنفسه، بهذه الموسوعية :

«وبهذا صار الكتاب عن سوس موسوعة (..) والمقصود أن أسجل ما يمكن لي تسجيله للغد، بهذه الكتب عن هذه الناحية من المغرب.

هذا وقد يجد القارىء من أبناء اليوم، مما أكتبه ما يعده من سقط المتاع، ومما لا ينبغي أن يهتم به، مما يعده عند نفسه، في ذوقه من الخرافات، ولكن لا ينسى أنني مؤرخ، وقلم المؤرخ للجماعة كعدسة تلتقط كل ما أمامها، حتى ما تقذى به الأعين، فكما تلتقط الإشعاعات الساطعة تلتقط الظلال القاتمة، فإن لم يكن قلم من يجمع للتاريخ كذلك، فإنه قلم التضليل والمسح للحقائق (...) ولا خير في مؤرخ جماع فقط من غير أن يظهر أثر فكره، فيما يكتب.»(المعسول ج 1 ص (هـ + و)).

فمؤرخ الأدب السوسي، هنا يعطي الأسبقية للمدون والمسجل، منطلقا في ذلك من فكرة مسبقة، تفترض محدودية مهمته في التحضير لدارس هذه الظواهر التي يعمل على تجميعها ــ نسخا وتأليفا ــ مع انه يدرك تمام الادراك بأن قراء الجيل الثاني، لا ينظرون بنفس النظر إلى هذا الأدب الذي ينشد إلى الماضي بأكثر ما يستشرف آفاق المستقبل.

وقد أكون واحدا من هؤلاء الذين يطلق عليهم م.م السوسي، (القارىء من أبناء اليوم)، لهذا أجدني مضطرا لكي أعلن ان الأهمية القصوى، التي يمكن استخلاصها من هذه المادة الغزيرة، هي الكتابة لتاريخ الأفكار الأدبية، التي نخوض فيها اليوم من خلال المعسول وما يشابهه، لأن (أثر الفكر) الذي يتحدث عنه م.م. السوسي، هو أثر أكاد اجزم ان أدبنا الوطني أو الحديث، لم يتعامل معه بجدية لائقة.

من هنا، تعود أهمية التاريخ للأدب السوسي، إلى الأهمية التي يكتسيها درس

تاريخ الأفكار الأدبية، وتاريخ تحولات التيارات الأدبية أو انزياحها من الآداب الصغرى إلى الآداب الكبرى.

ف : (الاشعاعات الساطعة) و (الظلال القائمة)، بتعبير م.م. السوسي تعد من أهم المنظورات المكونة لأصول حداثتنا، والا ما كان م.م. السوسي ليتوجه إلى دارس الغد.

«وبعد فها أنذا أجعل أمام القارىء بعض ماسودته عن سوس، في هذا الكتاب، الذي هو أحد تلك الكتب، وسيجد فيه أحيانا تكرارا في التحدث عن شيء واحد، في مختلف التراجم، والمقصود إيجاد الصور المختلفة باختلاف الروايات لحادثة واحدة، ليستطيع من سيدرس الحادثة غدا أن يستوعب كل ما حواليها. فينظم الكلام في صعيد واحد. وأنا لا أزعم في هذا الكتاب إلا أنه مجموعة مهيأة لمن سيستقي منها غدا، ما يريد». (المعسول .ج 1 ص (و). ان م.م. السوسي ليفترض إيجاد :

1 ــ القارىء المتوهم لعمله، وهو قارىء يكلف بمهمة محددة هي (تنظيم الكلام) و (دفع التكرار)، وإيجاد (الرواية الواحدة للحادثة) (لا استيعاب الحادثة).

2 ــ وتوفر المادة التاريخية الغزيرة، ذات (الصور المختلفة) بـ (بعض مسوداتها) و (اختلاف الروايات).

3 ــ فعلى القارىء المتوهم، أن يختار في (المجموعة المهيأة) من طرف م.م. السوسي، (ما يريد)، لأن هذا الأخير يقدم لنا مصادر ووثائق، فله إذن :

4 ــ فضل الجمع ولنا فضل إعادة ــ القراءة (غدا).

فالمؤرخ الأدبي لايكتفي بالقيام بمهمة، بل يتعداها إلى رسم طريقنا وتوجيهنا عبر بيداغوجية المدرس، الذي يفهم حدوده ومقدراتنا، لذلك فهو يقف عند العملية الوصفية، ويطالبنا بالحاح بالعملية التنظيمية، فهل تعوزه إمكانيات ما يطلق عليهم (أبناء اليوم) ؟

«... لا أدعي انني بلغت الغاية، واتبعت المنهج العلمي في الدقة، وإنما ادعي انني حرصت على امانة النقل عن المصادر، وغالبها من أفواه رجالات الاسر، واجتهدت على أن اتبع الترتيب المنطقي إن حاولت الاستنتاج، بادلا جهدي ما استطعت، لأن المقصود أولا وآخرا أن يرى القارىء، مشاهدة ما يقوم به جانب

من جوانب المغرب، يضم طائفة من أبناء أمازيغ الشلحيين البدويين، في نشر اللغة العربية وعلومها وآدابها، وقد أولعوا بذلك ولوعا غريبا، فقاموا بأعظم دور في ذلك بجهودهم الخاصة من غير أن تعينهم الدولة». المعسول. ج 1 ص (و)).

فهل هو (تواضع العلماء) كما يقال، ذاك الذي يعلنه م.م. السوسي، وما الذي يعوقه في (بلوغ الغاية) ؟ ولماذا لم (يتبع المنهج العلمي الدقيق ؟) يلاحظ في البداية على أن م.م. السوسي، يستعمل اصطلاحات جديدة، بلغت نصيبا كبيرا من استيعاب الثقافة الشرقية التي كانت سائدة، آنذاك في عصره ــ يدل على ذلك مقال (طه حسين في الغ) ــ فالزيارة الوهمية لهذا الأخير لسوس، هي رمز. يقول عنه م.م السوسي :

«... زاولت من العربية وعلومها وآدابها ما حولني من مسلاخ بربري، إلى مسلاخ عربي، فكرا وذوقا وغيرة وشعورا وعواطف». وهو كذلك ما يتصور م.م السوسي ان طه حسين، يتوجه به إليه : «انك لو درست عندنا في الجامعة وتمرنت على ترتيب أساليب الاحتجاج لكنت ممن يحسب له حساب ما».، فهذه التصورات تفترض إدراكا وتصورا للمناهج لا جهلا بها لأن م.م. السوسي، يتبع (الترتيب المنطقي) و (يحاول الاستنتاج)، وتدخل العمليتان في صلب منهج علمي، يتأكد في (آمانة النقل) و (نشر اللغة العربية) بين (أبناء أمازيغ الشلحيين البدويين)، كعكس لنشاط هؤلاء وبلورة لثقافتهم عبر اللغة المكتوبة. ويقسم م.م. السوسي. الأدب العربي السوسي، إلى مراحل هي :

1 ــ النهضة الأدبية السوسية الأولى (900 ــ 1118)

2 ــ زمن الفتور بعدها (1118 ــ 1189)

3 ــ محاولة إنعاش الأدب بعد فتوره (1189 ــ 1269)

4 ــ النهضة الأدبية السوسية الثانية (1269 ــ 1352).

ولا يهمنا مدى انطباق هذا التقسيم على الأدب السوسي أم عدم انطباقه، بل الأهم في كل هذا هو بحث م.م. السوسي، عن إطار نظري لهذا الأدب على غرار الآداب الكبرى لوطنية والقومية العربية، كما نشدد على تخصيص هذا الأدب السوسي بنهضتين : الأول قديمة والثانية حديثة، على غرار الأدب العربي الكلاسيكي والحديث.

فالمؤرخ الأدبي السوسي يتبنى الإطار المعرفي للنهضة، ولما قبل النهضة، ولاستمرارية هذه النهضة، وهو لا يختلف في ذلك عن باقي مؤرخي الأدب العربي والمغربي، لأن الحافز الأساسي للمؤرخ الأدبي هو إعطاء شهادة وجود أدب يعتبر من الدرجة الثانية، بالنسبة للأدب الوطني، ومن درجة ثالثة ربما ـــ بالنسبة للآداب عامة.

والحقيقة هي أن الاشكال لايكمن في إثبات نهضة، بمقدار ما يكمن في ربط أواصر هذا الأدب السوسي بالآداب الكبرى والمتداولة، من هنا، فقد أجهد المختار السوسي نفسه لوضع هذا الإطار المعرفي، الذي لم يجد استمرارية مقبولة له في المقاربات اللاحقة.

ب ـــ الأنواع الصغرى للأدب السوسي :

ولتأصيل هذا الأدب السوسي، فإن م.م. السوسي، وغيره يبحثون في أعمق أنواعه، والتي تربطه بباقي الآداب العالمية والوطنية، من هنا جاء التنقيب عن الملاحم السوسية، والاخوانيات، والرسائل والوطنيات، والرحلات، والبيوغرافيات، والتأملات، والخواطر،... إلخ. هذا ما يسوغ لمحمد المختار السوسي، الإشارة إلى ملاحم سوسية، تصف فتح إفريقيا (خلال جزولة) (ج 3. ص 120). وملاحم سوسية على عهد الرومان، كما أن الاحالات البعيدة على الانتاج تعتمد على ابن خلدون، وإنجازات يحيا بن سعيد الكرامي (ت 900 هـ)، وإنشادات المحاولوا الايسى (ت 1112 هـ) وتعريبات احندا وعلى اوزال (ت 1163)، واشعار سيدي حمو الطالب، وملحمة ابن غيل (ت. ق 14).

ويجد م.م. السوسي، بأن المعرفة الاجمالية بما وصله الأدب العربي السوسي تتفاوت بين الاشعار والرسائل في النهضة الأولى، التي ارتبطت بإيليغ، وأصابها ما أصاب هذه الأخيرة، الا أن ما يطلق عليه م.م السوسي، النهضة الثانية، فإنه رغم نهضويتها، فقد ظلت بمعزل عن نهضة الأدب الحديث، ومع ذلك تظل أمنية م.م. السوسي :»

«أن يكون لهذا النشىء تأثير في الفكر الأدبي السوسي حتى يستطيع أن يندمج في حركة الأدب العربي العام، التي تسود اليوم العالم العربي كله، فتؤدي القريحة السوسية ما عليها، فيرجع النشاط الأدبي من جديد إلى ما وراء الأطلس كما كان منذ قرون». (سوس العالمة 117)

ويظهر أن الهاجس الأساسي في كتابات م.م. السوسي، في جل أعماله كان هو إثبات الهوية الأدبية السوسية — بعروبتها وإسلامها — خارج المزايدات والنرجسيات الاقليمية، لأنه لم يكن أول من يهتم بالمنطقة، كما أنه ليس آخر هؤلاء، فهو ينطلق من أطروحة أساسية، تكاد تكون عقائدية، تؤمن بوجود فكر سوسي سابق على الدراسات، فليس على هذه الأخيرة، سوى استنطاقه وإدماجه في التيار العام لحركة الأدب العربي، لا متلاكه نفس مكونات هذا الأب العربي، الذي يجعل القباج، وابن العباس، من أهم أعلامه، حتى وان كان ذوقهما لا يستسيغ هذا الأدب السوسي :

«فقد أودعت في هذا الجزء كل ما يدور في خاطري (...) جمعت كل ذلك على ما فيه، ولم يخف عني بعض ما فيه، ولكن (...) ما لايصلح للأدب، يصلح للتاريخ. وما يعبس له الذوق السليم من صدور الأدباء الاعلين كالقباج وابن العباس، الذي لا يقبل إلاَّ النُّضَار الصافي (...) فقد يبسم له ثغر المؤرخ كالكانوني، الذي يقنع من النتف من التاريخ بكل ما أمكن، يوم يرد وجهته إلى التاريخ السوسي الذي يريد أن يعرف منه الأدب الالغي». (الالغيات ج 1. ص 244).

فالتوزع إذن بين التاريخي والأدبي، هو ما يسيطر على فكر م.م. السوسي الذي يكاد يجد في التاريخ هوية ملازمة أو هوية ثانية للهوية الأدبية الأولى، وقد يذهب به الأمر إلى تسجيل التاريخي لتاريخيته، حتى وان كان هذا التاريخي يخالف ذوق المعاصرين من الأدباء المغاربة، الذين انخرطوا في الحداثة الشرقية، أو جديد العصر، كالقباج صاحب (الأدب العربي في المغرب الأقصى) وهو الكتاب الذي يتوجه به مؤلفه إلى المشارقة، بنفس القوة التي يتوجه فيها م.م. السوسي، إلى الأدب الوطني المغربي.

وإذا كان التاريخ الأدبي يأتي في الدرجة الأولى من اهتمام الأدباء السوسيين، فإن الأنواع الصغرى وجدت حقلها الخصب عند هؤلاء الأدباء، ونقصد هنا بالأنواع الصغرى :

1 — الترسل

2 — الرحلات

3 — الاخوانيات

4 ــ الوطنيات

5 ــ التأملات والخواطر

6 ــ البيوغرافيات.

فالرسالتان : البونعمانية والشوقية، كانتا كنموذج لعديد من الرسائل الأخرى، التي تتحول إلى وسيلة أدبية صغرى، غالبا ما تمتزج بالرحلة، بل وتصبح ملازمة لها، في الرسالتين : البونعمانية والشوقية فتوظيف الأنواع الصغرى، في التعبير عن الأنواع الصغرى ظاهرة لا تفارق كتابات م.م. السوسي، أو الدارسين الجامعيين لهذا الأدب السوسي ــ عمر أمرير / عبد الله المعاوي / أحمد خليل لأن دراسة شعر (أمارك) عند سيدي حمو، أو شعر (أحواش)، أو شعار م.م السوسي عند جامعي هذا الأدب، لا يفوتها التركيز على هذه الأنواع الصغرى، التي يكتسي الاهتمام بها لدينا دلالة خاصة، على التحضير لما بعد هذه الأنواع الصغرى، كما ستجد ذلك عند مستاوي وغيره، وهو تجاوز محدود، لأن طابع هذه الأنواع يظل تقليديا، إلا أنه يعكس بنيات فكرية ومعرفية، تجد تفسيرها ضمن الإطار الانتروبولوجي للثقافة «السوسية»، ومن هذا المنظور يوضح م.م. السوسي أحد الأنواع الصغرى، وهو الاخوانيات، كالتالي :

«وان كانت في باب الاخوانيات الالغيات حسنة، وقد حاولت ان اقولها على نحو ما يقتضيه الذوق الالغي، وكثيرا ما يأتيني فيها ما يعجبكم بني العصر الحديث، فاستبدله، نزولا عند هذه البيئة مرغما، فان تكن عندك انت وابن العباس القباج الأمثل الشراك، فإنها تاج مرصع عند آخرين، والحمد لله الذي غاير بين الأذواق حتى يجد مثلي ممن يسفون غالبا، مخرجا حسنا، أو ليس الأمر كذلك، فما تنتقد انت أيضا بدورك منها من جديد ؟ فإن كان هناك ما تنتقده فانتقد الأسلوب والخلو من المعاني المتبكرة، ومن الوثبات الخيالية، واما من جهة التركيب العربي اللغوي فقد مرت المسكينة تحت ثقاف لا يرحم »(الرسالتان، ص 143).

يفترض م.م. السوسي، عاملا معاكسا، يتمثل في حداثة المعاصرين الذين يتقاسمهم مبدأ الحداثة، ولا يرى مانعاً، ان هو انقطع عن ممارستها. فهو يدرك تمام الادراك ضروراتها، إلا انه يقدم عليها ضروريات البيئة البدوية و (الذوق الالغي)، كما قد يضحي بالأسلوب و (المعاني المبتكرة) و (الوثبات الخيالية) لصالح صفاء اللغة العربية ومتانتها

نستخلص مما سبق، ان توزع (الأدب السوسي بين الأنواع الصغرى والآداب الكبرى)، هو توزع تبرره ظروف سوسيو ــ ثقافية، وحاجات وجودية، تبحث عن وسائل تعبيرية، وقناة توصيل الأدب العربي.

كما نلاحظ أن الأدب السوسي لا يكتفي بالتعامل مع الأنواع الصغرى منفردة، بل كثيرا ما يعمل علي المزج بين نوعين أدبيين فأكثر، كما أنه لم يتوقف عند حدود اعتماد قناة توصيل الأدب العربي، بل أوجد به قناة توصيل في الأدب الفرنسي.

وقد تكون هذه الخلاصات العامة. من قبيل تحصيل الحاصل، ولكنها إمكانيات لتجاوز الثنائية على مستوى الأنواع الصغرى، كما على مستوى الآداب الكبرى.